فلسطين

التقاء المطامع والمصالح

ودوره في قيام دولة الاحتلال

إعداد

معتز عبد الرحمن

مقدم إلى

الأستاذ الدكتور عيسى بريجية

تمهيد

يعد قيام الدول وانهيارها مسلكا بشريا لا يخلو منه زمان ومكان، ويحتاج قيام دولة من الصفر العديد من العوامل والمقومات التي يصعب توفرها لفئة من الفئات منفردة دون تلاقي مصالحها مع مصالح القوى المحيطة، ودون وجود قدر كاف من الضعف في البنيان التي تستهدف تلك الفئة اختراقه، فقد كان قيام الكيان الصهيوني في فلسطين في حاجة لأكثر مما يحتاجه أي كيان آخر كي يشكل دولة، إذ أنه لم يكن لديه أرض، وليس لديه شعب من عرق واحد مجتمع في مكان واحد ولا حتى لهم لغة واحدة، كما أن كثير من المؤهلات العلمية والسياسية والمهارات التي ينبغي توفرها في مؤسسي أي كيان لم تكن متوفرة في عموم اليهود عند نشوء الفكرة لأول مرة، فاحتاجوا إلى خطة طويلة الأمد لإعداد كل هذا، ولم يكن هذا ممكنا دون مساعدة القوى الدولية الأخرى، ولم تكن تلك القوى لتقدم كل هذا العون والدعم والتمويل دون أن تكون لها مصالح حقيقية في قيام هذا الكيان، فالتقت مصالح فئات متعددة في هذا المشروع مما أدى لتلاقي جهودهم ومساعيهم في دعمه.

الفئة الأولى/الشريك الأول: عموم اليهود (المسألة اليهودية)

مثّل قيام القوميات السياسية في الغرب بدء من القرن الثامن عشر وما تلاه ضغطا جديدا على اليهود حول العالم، إذ اعتبر ذلك مصادما للوعي الديني اليهودي والذي يستعصي على الاندماج مع القوميات السياسية، وبدا اليهود في شتى الدول كأقلية منفصلة عن المجتمعات التي تعيش فيها، ودفع ذلك الساسة والمفكرين من اليهود وغير اليهود للدخول في جدل وطرح حلول لما وصف بأنه (المسألة اليهودية) أو (المشكلة اليهودية).

أدت (المسألة اليهودية) إلى ظهور أفكار وتيارات تسعى لحلها ولكن عبر وسائل مختلفة تصل أحيانا إلى حد التضاد، فظهرت حركات الإصلاح والتنوير اليهودية والتي كانت تستهدف دمج اليهود في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها، والذي يستدعي بالضرورة إحداث تغيير في الوعي والمعتقد الديني اليهودي كي يتخلى اليهود عن حالة الانعزال والانتماء الأوحد للقومية اليهودية والانتقال إلى الانتماء للدول القومية التي يعيشون فيها، ومن ملامح وأدوات هذا التغيير:

- حث اليهود على تعلم العلوم المادية وعدم الاكتفاء بالعلوم الدينية.
- دعم مبدأ الانتماء القومي وتجاوز مبدأ الانتماء الديني الذي حافظ عليه اليهود لآلاف السنين.
- التفريق بين المقدس الإلهي والمقدس البشري، والحد من قداسة الكتاب المقدس.
- محاربة فكرة تميز الإنسان اليهودي وشعب الله المختار وأن التميز مصدره العقل والتفوق في الأمور الإبداعية في الحياة.
- استبعاد العناصر القومية الموجودة في الدين، التي تربط اليهودي بفكرة شعب الله المختار والأرض الموعودة، فغير بعضهم لغة الصلوات، واستبعاد العبادات المرتبطة بالعناية القومية في اليهودية، والدعوة لإعادة تفسير التوراة.
- تعديل فكرة عودة المخلص، وأنها لا تعني عودته شخصيا ليقودهم إلى بيت المقدس، ولكنها تعني العودة لليهودية مع بقاءهم في مجتمعاتهم الأوروبية.

لم يتقبل الكثير من اليهود تلك الدعوات لاعتبارها مخالفة للدين اليهودي، وفي ظل تلك الممانعة وجدت الدعوة الصهيونية مجالا للظهور والانتشار بين اليهود إذ كان من أسباب ظهورها حسب ما أورده الدكتور المسيري في موسوعته (اليهود واليهودية والصهيونية):

- أزمة اليهودية الحاخامية وظهور حركات الإصلاح والدمج.
- سقوط القيادات اليهودية التقليدية وظهور المثقف اليهودي الذي فقط هويته اليهودية ولم يكتسب هوية غربية جديدة.

وقد مثلت (المسألة اليهودية) نقطة ارتكاز رئيسية لثيودور هرتزل في دعوته إلى إنشاء وطن قومي لليهود، حتى أنه قد أفرد لها فصلا كاملا في كتابه (الدولة اليهودية)، عدّد فيه صور معاناة اليهود في شتى دول الأرض مستفزا بذلك مشاعر قراءه، كما هاجم وفند كل الحلول التي طرحت سابقا لأجلها، ليقدم حل انشاء الدولة اليهودية كحل وحيد لها، وتجاوز مجرد طرح الفكرة ليضع خطة كلية لمشروعه، اعتمد بوضوح في تنفيذها على تلك الحالة التي يعيشها اليهود حول العالم لا سيما الفقراء منهم، مبينا أن السبيل الوحيد لتحقيق مصالح الفئات الفقيرة أولا ثم ما فوقها يأتي عبر إنشاء تلك الدولة المستهدفة.

يقول هرتزل (ولا يجب أن نتخيل أن رحيل اليهود سيكون أمرا مفاجئا، بل تدريجيا، ومتواصلا، وسيستمر لعدة عقود ، حيث سيرحل الأكثر فقرا أولا لزراعة الأرض، ووفقا لخطة يتم وضعها مسبقا، سيقوم هؤلاء الفقراء بإنشاء الطرق، والكباري، والسكك الحديدية، وأجهزة التلغراف، وتنظيم الأنهار، وبناء المساكن الخاصة بهم، سيخلق عملهم هذا تجارة، وستخلق هذه التجارة أسواقا، وستجذب الأسواق مستعمرين جدد، حيث سيذهبون طواعية على نفقتهم الخاصة ومتحملين للمخاطر التي ستواجهم، وما يبذل على هذه الأرض من العمل سيعمل على رفع قيمتها، وسرعان ما سيدرك اليهود أن آفاقا جديدة ودائمة يتم فتحها هنا لمن تجنح أرواحهم نحو المشروعات؛ الأمر الذي لم يقابل حتى الآن إلا بالكراهية والتنديد فقط).

إلا أن دعوة هرتزل لم تحدد فلسطين بشكل قطعي ووحيد لإنشاء الوطن المستهدف، بل اعتبر أن هناك خياران، الأول هو الأرجنتين والثاني هو فلسطين، وعدد مميزات وعيوب كليهما، إلا أن مميزات فلسطين قد شملت كون احتلالها يحقق مصالح للحلفاء الامبرياليين بجانب الموقع الديني من المعتقد اليهودي الذي يسهل تحفيز اليهود للهجرة إليها، أي أن التقاء مصالح اليهود مع حلفائهم، ومصالح زعماء الصهيونية مع أفراد اليهود أنفسهم كان متحققا في فلسطين بصورة أكبر من تلك التي يمكن تحقيقها في الأرجنتين.

يقول هرتزل (أما فلسطين فهي وطننا التاريخي الخالد في ذاكرتنا أبد الدهر، فمجرد ذكر اسم فلسطين يجذب شعبنا بقوة هائلة، فإذا ما أعطانا فخامة السلطان فلسطين، سنقوم بدورنا بتدبير جميع الموارد المالية لتركيا، حيث يتعين أن نشكل هناك جزءا من السور الواقي لأوروبا ضد آسيا؛ حائط صد أمامي للحضارة في مقابل البربرية، وبصفتنا دولة حيادية، يتعين علينا أن نبقى على اتصال بأوروبا بأكملها، الأمر الذي سيؤمن وجودنا، وستتم حماية مقدسات النصرانية بتخصيص وضع شرعى غير الوضع الإقليمي المتعارف عليه في القوانين الخاصة بالأمم، يجب علينا أن نشكل حارسا شرفيا حول هذه المقدسات يكون مسئولا عن الوفاء بهذا الواجب في وجودنا، وسيكون هذا الحارس الشرفي الرمز الأعظم لحل القضية اليهودية بعد ١٨ قرنا من معاناة اليهود).

الفئة الثانية/الشريك الثاني: خواص اليهود

كانت الأوضاع السيئة التي يعيشها اليهود في آسيا وشرق أوروبا دافعة لهم إلى الهجرة إلى دول غرب أوروبا المتقدمة، وكانوا في عمومهم من الفقرا والفلاحين والبسطاء، ولم تمثل تلك الهجرة مصدر قلق للدول الغربية فقط، بل ومثلت قلقا لليهود الأثرياء المنتمين للدول الغربية لا سيما بريطانيا وفرنسا، إذ رأى هؤلاء الأثرياء أن زيادة تدفق اليهود الفقراء إلى غرب أوروبا يهدد وضعهم الاجتماعي والحضاري، كما يخشون من حدوث ردة فعل من المجتمعات الغربية ضد اليهود عامة مما يضر بمصالحهم هم في أوروبا، مما دفع الكثير من هؤلاء الأثرياء إلى دعم وتمويل مساعي توجيه اليهود المهاجرين إلى خارج أوروبا وتوطينهم في دول بعيدة كفلسطين وأمريكا اللاتينية، وهو ما أنشأ ما يسمى بـ (الصهيونية التوطينية) مقابل (الصهيونية الاستيطانية).

يقول الدكتور المسيري (الصهيونية التوطينية مصطلح قمنا بسكه لنشير إلى الصهيوني الذي يؤمن بأن الصيغة الصهيونية الأساسية - نقل بعض أو كل يهود اوربا خارجها - تنطبق على يهودي أو صهيونى آخر ولا تنطبق عليه هو شخصيا، وتقف صهيونية مثل هذا الصهيوني عند حد الدعم المالي والسياسي للمشروع الاستيطاني دون الهجرة بنفسه، أي أنه بتخلي عن التطبيق الفعلي لأحد أهم جوانب الصهيونية الاستيطانية دون التخلي عن تأييده ودعمه).

ويقول كذلك (ومع تعثر التحديث في شرق أوربا، وهو تعثر صاحبه انفجار سكاني حاد بين أعضاء الجماعات اليهودية، خرج مئات الألوف بل الملايين من اليهود الفائضين من شرق أوربا ووصلت جحافلهم إلى النمسا وفرنسا وشواطئ بريطانيا، وقد هدد هؤلاء اليهود المواقع الطبقية والمكانة المتميزة الجديدة التي كان يشغلها يهود الغرب المندمجون، بل يقال أنهم كانوا يهددون الأمن الاجتماعي للدول التي بهاجرون إليها، وهنا حدث التشابك بين مصير يهود شرق أوروبا وأثرياء يهود الغرب، وتشابك المصير يختلف عن وحدة المصير التي يتحدث عنها الصهاينة، فيهود الغرب نظروا إلى القادمين على أنهم - على أسوأ تقدير- خطر يتهددهم أو على أنهم - على أحسن تقدير- إخوة في الدين سينو الحظ يستحقون الإحسان، وقد عبر ذلك عن نفسه من خلال مشاريع صهيونية توطينية يمولها يهود الغرب لإغاثة يهود الشرق وللتخلص منهم في الوقت نفسه).

وقد لمعت أسماء عديدة من أثرياء يهود الغرب في مجال دعم توطين يهود الشرق خارج أوروبا، ومثل دعما كبيرا سياسيا وماليا لإدخال اليهود المستوطنين إلى فلسطين ومنحهم الأراضي والصلاحيات، منهم موسى مونتيفوري، إدموند دي روتشيلد.

الفئة الثالثة/الشريك الثالث: فرنسا

هيمنت بريطانيا على الهند في القرن السابع عشر عبر شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أضاف قوة اقتصادية وبشرية كبيرة للامبراطورية البريطانية، مما زاد من أهمية موقع فلسطين ومصر الاستراتيجي لاعتباره رابطا بين طرفي الامبراطورية البريطانية، ووقوعه تحت سيطرة قوة استعمارية أخرى يعتبر تحجيم كبير للقوى البريطانية، سواء كانت تلك السيطرة مباشرة (احتلال مباشر) أو عبر إبقاء فلسطين تحت حكم كيان حليف.

وكان ذلك من دوافع الحملة الفرنسية على الشرق بقيادة نابليون بونابرت عام 1798 م، والتي بدأت بالسيطرة على مصر ثم التوجه إلى فلسطين للسيطرة عليها، ولم يتحرك نابليون نحو فلسطين عسكريا فقط بل رفع لواء الدعوة لإنشاء وطن قومي لليهود على أرضها ليحقق الهدف الاستراتيجي السالف ذكره وهو ضمان بقاء فلسطين تحت حكم حليف يساهم في تحجيم وضرب المصالح البريطانية المعتمدة على التواصل بين مستعمرات الشرق ورأس الحكم في الغرب، ووجه دعوة إلى يهود العالم ليستوطنوا فلسطين معلنا دعمه لمشروعهم، ومن أسباب مشروع نابليون لتوطين اليهود في فلسطين:

- استغلال أماني اليهود ومشاكلهم في تحقيق السيطرة على الشرق وضرب مصالح بريطانيا فيه.
- الحصول على الدعم العسكري من اليهود ووجودهم كجنود في جيشه.
- الحفاظ على التمويل اليهودي للحملات الفرنسية، والتي كان آل روتشيلد من كبار مموليها.
- كسب تأييد حاييم فارحي اليهودي الشرقي صاحب النفوذ المالي والتمويني لمدينة عكا كي يساهم في كسر صمود المدينة.

فشل مشروع نابليون في إنشاء دولة لليهود في فلسطين بعد معارك عكا وأبو قير، إلا أن الدعوة التي أطلقها والحملة التي قام بها قد نبهت الخصم البريطاني لحجم الخطر الذي ستمثله تلك المنطقة إن سبقهم أحد آخر إلى السيطرة عليها سواء أيضا سيطرة مباشرة أو غير مباشرة، فقد كانت مطامع فرنسا في فلسطين عاملا حفازا أحيا مطامع بريطانيا بها، وعبر نفس السبيل.

الفئة الرابعة/الشريك الرابع: بريطانيا

حولت بريطانيا فكرة نابليون الوليدة إلى مشروع متكامل الأركان، وخطة طويلة المدى كي تحقق لنفسها وصل الغرب بالشرق وللتجنب مستقبلا المخاطر التي سببتها حملة نابليون، فدعمت قيام مشروع قيام دولة يهودية في فلسطين بشتى الوسائل وعبر خطوات تدريجية مدروسة، كان منها:

- تبني بعض رجال الدين النصراني الإنجليز في مطلع القرن التاسع عشر الدعوة لعودة اليهود إلى فلسطين تنفيذا لوعود التوراة.
- تعدد نداءات عودة اليهود إلى فلسطين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.
- عقد اجتماعات في بريطانيا مع أثرياء اليهود الداعمين للصهيونية التوطينية في فلسطين مثل موسى مونتيفوري لتمويل انتقال اليهود إلى فلسطين.
- محاولات استغلال العلاقات مع الوالي محمد علي باشا لتأجير الأراضي في فلسطين.
- انشاء القنصلية البريطانية في القدس (بيت المقدس) عام 1838م والتي وجهت جهودها لحماية الجالية اليهودية ودعم مساعي تمكينهم.
- العمل على عزل مصر عن الشام عبر اتفاق بريطانيا وروسيا عام 1839م، وكذلك اتفاقية لندن 1840م التي أخرجت محمد علي باشا من الشام وحصرته في مصر مما أدى لحصول فراغ سياسي وعسكري في فلسطين بعد خروج محمد علي باشا منها في ظل الضعف الحاصل للدولة العثمانية، والتي استغلته في زيادة سيطرتها على فلسطين لتحقيق المشروع اليهودي فيها.

ثم تتابعت المساعي البريطانية التي لا يتسع لها المقام في هذا البحث إلى قيام الدولة المستهدفة عام 1948م

خاتمة

كما تبين فإن تلاقي مصالح فئات اليهود المختلفة مع مصالح القوى الغربية الكبرى دعم ابتداء فكرة قيام دولة يهودية تدفع – من وجهة نظر اليهود - الاضطهاد عن فقراء اليهود في شتى أنحاء العالم، وتدفع خطر هجرتهم إلى الغرب على أثرياء اليهود والدول التي يقيمون بها، ثم رجحت تلك المصالح مرة أخرى فلسطين عن غيرها من الأماكن المقترحة، إذ أنها أسهل في دعوة اليهود إليها، كما أن موقعها يشكل حاجزا استعماريا هاما بين الشرق والغرب، ولقد كان إفشال التقاء تلك المصالح ممكنا في ظل يقظة وقوة الدولة الإسلامية في ذلك الحين، إلا أن موافقة تلك المساعي لضعف كبير في بنيان الدولة العثمانية قد فتح المجال إلى تحقيقها، ولا تزال القضية الفلسطينية تقع تحت تأثير تلك المصالح حتى الآن، ولا يمكن الانتقال من دور الفريسة إلى دور الصياد دون دخول أصحاب الحق بقوة في تلك المعركة إذ أن تغير اتجاه أمواج المصالح لأن يكون في أي وقت من الأوقات في صالح أصحاب الحق دون أن يكونوا أصحاب تأثير حقيقي في موازناتها.

مراجع البحث

1- موسوعة (اليهود واليهودية والصهيونية) للدكتور عبد الوهاب المسيري

2- محاضرات (شهادة دراسات بيت المقدس) للدكتور عيسى بريجية

3- جذور القضية الفلسطينية (1799-1928) للدكتور عبد الفتاح العويسي

4- كتاب (الدولة اليهودية) لـ ثيودور هرتزل

5- موقع قصة الإسلام